أشعار هذيل

وأثرها في محيط الأدب العربي

١

obeikandl.com

جَميع الحُقوق محفُوظة

الطّبعَـة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

دار البشير
مركز جوهرة القدس التجاري - العبدلي - هاتف : ٤٦٥٩٨٩١/٤٦٥٩٨٩٢ - فاكس : ٤٦٥٩٨٩٣
ص.ب : ١٨٢٠٧٧ / ١٨٣٩٨٢ - عمان ١١١١٨ الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali - Tel: 4659891 / 4659892 - Fax: (4659893)
P.O.Box. (182077) -(183982) - Amman 11118 Jordan - E-mail: al_bashir@index.com.jo

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩، فاكس: ٨١٨٦١٥(٩٦١١)، ص.ب.: ٧٤٦٠ - ١١ بيروت ١١٠٧٢٢٤٠ لبنان
البريد الإلكتروني: Email:resalah@resalah.com، موقع الإنترنت:Http://www.resalah.com

Al-Resalah
Publishing House
BEIRUT/LEBANON-TELEFAX: 815112-319039-818615 - P.O.BOX: 117460
Web Location: *Http://www.resalah.com* - E-mail: *resalah@resalah.com*

أشعار هذيل

وأثرها في محيط الأدب العربي

الدكتور إسماعيل داود محمد النتشة
أستاذ الأدب والنقد المساعد في جامعة الخليل

الجزء الأول

دار البشير
مؤسسة الرسالة

obeikandl.com

obeikandl.com

جامعة الأزهر
كليـة اللغـة العربيــة
قسم الأدب والنقد

قرار اللجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد أن استمعت اللجنة المؤلفة من السادة الأساتذة الدكاترة:

١- عبد السلام أبي النجا سرحان مشرفاً.
٢- سليمان حسن ربيع عضواً.
٣- حامد حفني أحمد داود عضواً.

إلى العرض التحليلي لرسالة الدكتوراه المقدمة من الطالب: إسماعيل داود محمد النتشة الأردني الجنسية بعنوان: أشعار هذيل وأثرها في محيط الأدب العربي.

وبعد المناقشة العلمية والأدبية التي تولاها الأساتذة أعضاء اللجنة والاستماع إلى ردود الطالب وإجاباته عليها... خلت اللجنة للمداولة بعد أربع ساعات متوالية في العرض والمناقشة ثم قررت بالإجماع ما يلي:

أولاً: منح الطالب إسماعيل داود محمد النتشة درجة العالمية "الدكتوراه" في الأدب والنقد مع مرتبة الشرف الأولى "امتياز".

ثانياً: التوصية بطبع الرسالة على نفقة جامعة الأزهر تقديراً لمكانتها العلمية والأدبية.

ثالثاً: التوصية بتوزيع هذه الرسالة بعد طبعها على جميع جامعات العالم المهتمة بالدراسات العربية.

رابعاً: شكر الطالب على ما بذل من مجهود وما تحمل من مشاق في تأليف رسالته وطبعها. واللجنة تسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقه في خدمة العربية ويسدد خطاه في حياته المقبلة وينفع الإسلام والمسلمين بعلمه.

أعضـاء اللجنـة:

د. حامد حفني داود   د. عبد السلام أبي النجا سرحان   د. سليمان حسن ربيع.

الاثنين ٢٧ من شعبان ١٣٩٦هـ
٢٣ من أغسطس ١٩٧٦م

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله على جميل آلائه، وجَزيل نَعمائه، والصلاة والسلام على صفوة رسله وأنبيائه، إمام الفصحاء، ورائد البلغاء، سيدنا محمد بن عبد الله خاتم رسل الله، وأكرم أنبياء الله على الله، وعلى آله وأصحابه، وأنصاره وأحبابه، الذين آزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

أما بعد، فقد نَشقْتُ عبير الدراسة الأدبية منذ تفتَّحَتْ بَراعمُ صِبَاي، وتَفَوَّحتُ عُطور مَحْيَاي، في أدراجِ جامعة الأزهر، وتحت ظلال نهجها الأغَرِّ، الذي يربط وشائجَ الحياة العلمية بطُنُب الحقائق الثقافية، التي عرفتها الحياة لتلك الجامعة القديمة الجديدة، والطَّريفة التَّليدة، تيكَ التي حملت الأمانة، وأدَّت الرسالة طَلْعَ ألفٍ من السنوات المباركات، في محيط المعارف الإسلامية والعربية دون ضعف أو وهَنٍ، وبِلاَ كَلالٍ أو مَلاَل.

ولقد شَغَفَتْني دراسة الأدب العربي وعلومه منذ التحقت بكلية اللغة العربية، تلك الكلية الفتية التي تصدَّتْ للأَصْفاد والأغلال التي طُوِّقتْ بها لغةُ الأدب، ولسانُ العرب، من تلك القُوَى الخَفيَّة التي جعلت هَمَّها الأولَ تقويضَ صرْحِ الإسلام، وتمزيقَ ما له من أعلام، وإبعادَ المسلمين عن مناهل القرآن العَذْبة، وموارده الرَّطْبَة، والقضاءَ على العربية الفُصْحَى، التي شَاكَت حياةَ الأعداء وأهْلِ البَغْضاء، من الاستعماريين وذُيولهم والأذناب.

وعلى الرغم مما يُحاط به الأدب الجاهلي من دعايات مسمومة، وتشويهات مرسومة، وطَعَنات ضالَّة، ونَقَدات جاهلة، رأيتُني مشدوداً إلى ذلك الأدب، مُنجذباً نحوه، مُولَعاً به، مُغْرَماً بأسراره، متعلِّقاً بأستاره، مُعَانقاً لآثاره، مُشْرَئِبَّ العُنُقِ نحو ذُرَاه وصُواه، متطلِّعاً إلى الوقوف على مشارفه والاستمتاع بنَجْواه.

ومن هنا عَنيتُ كلَّ العناية به، وَقَسرْتُ نفسي على متابعته، والحياة في مرابعه والنَّهَل من موارده، والرَّشْف من رَحيقه، والنَّيْلِ من أفاويقه... حتى تَذَوَّقْتُ حلاوتَهَ ولَمَسْت طَلاوَتَهُ، ووضعتُ يدي على مسارب جماله، وَمَصَابِّ جلاله، ومِهَاد عظمته

وعِمَاد بلاغته، ومُسْتَراد حُسْنه وفَتنه، ومَسْرى نجومه ومَسَار كواكبه، وملأتُ عَينَيَّ من رُوَائه وَبهائة، وَسناه وسنائه، وما يتلألأ به من أضواء يكاد إشعاعُها يَذْهَبُ بالأبصار.

لهذا لم أَكَدْ أحصُلُ على الإجازة العالية (الليسانس) من الكلية بدرجة "جيد جداً" حتى ولَّيْتُ وجهي شَطْرَ الدراسات العليا في قسم الأدب والنقد، وهُرِعْتُ إلى إشباع نَهَمي بعلومه، وإمتاع قَرَمِي بفنونه، والتزوُّد بما في كنوزه، وذخائره من عوارفَ ومعارفَ خطَّتْها أنامل الزمن على صفحات المئات من السنوات.

وفي السنتين الأُولَيَيْنِ للدراسة في ذلك القسم طَوَّفَ بنا أستاذُنا الدكتورُ عبدُ السلام سرْحَانُ حول دراسات واسعة لنصوص من الأدب الجاهلي، وتعليقاتٍ مُمْرِعة عن ذلك الطِّرْز الأدبي الممتاز، والنَّمَط الشعري الأَخّاذ، أَشْعَرَتْنا بالثقة في هذا الشعر، والمقة له، وحبَّبَتْ إلينا العُكُوفَ عليه، والوقوفَ لديه، وقرَّبَت بيننا وبينه إلى حدٍّ جدٍّ عجيب.

ومن أقوى الدراسات التي كان لها أثرٌ بارزٌ في نفسي وحِسِّي ما كتبه أستاذُنا الفاضل عن عَيْنيَّةِ أبي ذُؤَيْبٍ الهُذَليِّ التي قالها في رثاء أبنائه الخمسة الذين ماتوا بالطاعون في مصر، فقد كان لما قرأتُه –من ضبط للرواياتِ وشرحٍ للأبيات، وترجمةٍ للشاعر واستكناهٍ لأطراف حياته، وإلماعٍ لجوانب شاعريته، وإفاضة في العرض، والتحليل، وإشادةٍ بهذا الأدب الأصيل، ولَفْتٍ إلى قوَّته وحيويَّته وفطريَّته ، وإطراءٍ للشاعر وعبقريَّته، ولفَنّه وقُدْرته، وإبرازٍ لمَدَى طاقته– أكْبرَ الأثر في توجيهي إلى الشعر الهُذليِّ ، وما في ثناياه من جُوْدَةِ الأساليب، وَرَوْعَةِ التراكيب، وما تحت جناحيه من جمال التعبير ، وجلال التأثير، وما بين أبياته من وئام، وما في عباراته من التئام، إلى جانب ما يمتاز به من قوة السَّبْك وحُسْن الحَوْك، ورقَّة الصُّنْع ودِقَّة الصَّوْغ، وجَزالة الكلمات، وبداوة الألفاظ، ذَوَاتِ الصبغ الساحر، واللون الأخَّاذ.

هذا مع ما يفيض به الشعر الجاهلي من صدق العاطفة، وحسن المؤالفة، وتقارب المباني والمعاني،والبعد عن الإيغال والمبالغة حتى كان المرآة الصافية، التي تنعكس عليها حياة العرب،وتتجلَّى عواطفهم، وتَظْهَرُ طباعهم وترتَسِمُ حياتهم، وتُسَجَّل عاداتهم، وتَبْدُو أخلاقهم، وتُعْرَضُ عقائدهم ومذاهبهم، فوق ما فيه من القيم الفنِّية الأصيلة التي تدفَّقَت بها الفطرة، وتمَّوجت بها الطبيعة، وصوَّرتها الحياة على هَدْي ما فيها من مذاقٍ حُلْوٍ أو طَعْمٍ جِدٍّ مَرِير.

كل هذا إلى جانب تلك الينابيع الثَّرارة بدقَّة الحسِّ ، وخِصْب الشعور، وصفاء النفس، ونقاء اللَّمْسِ، وطهارة الطبع، ولُطْفِ الرسم لأصداء الحياة العاطفية أو الجِدِّيَّة في شَتَّى الصُّوَرِ والألوان.

ولقد دفعني هذا كلُّه إلى محاولة تفتيح الأكمام الأدبية، أو الأصداف الشعرية في العصر الجاهلي، واقتضاني هذا كثيراً من العَنَت والرَّهَق، وعديداً من صور الشقاء والعناء، وإن كنت أفدت منها دُرْبَةً ومَرانَةً وتَجْرِبةً عودتني الصبر في ميدان الاطلاع، والحرص على اتساع الباع، وسلامة الطباع ثم الوصول إلى الزهور المُنَدّاة، أو اللآلئ المُصطَفاة، من رياض الجنان، أو حياضِ القيعان في ميادين الشعر الجاهلي العتيق.

ولعل أروع وأبدع وأسطع وألمع ما أُثِرَ من الشعر الجاهلي هو شِعْرُ هُذَيْلٍ، تلك القبيلة العريقة الأصل، البعيدة النِّيق في جِذْمِها العَربيِّ ونِجَارِها الذي لا يعرفه هَجِينٌ. ولقد خصَّتْهَا الأقدار بِرِفْعَة المِقْدَارِ حيثُ أفردتْها ـ من دون القبائل العربية جميعاً ـ بالعثور على ديوان شعرها،وميدان فخرها، مع شُرُوحٍ له طبعت بمصر في العصر الحديث، تحت ظلال الرعاية وحسن الاعتناء.

ولذلك آنَسْتُ في النفس نَاراً ، جَعَلَتْ من لَيْلي نهاراً، حيث اعتزمتُ الاختيار لموضوع يصلح لتقديم بحث أدبي عنه للحصول على درجة العالمية "الدكتوراه" في الأدب والنقد بعد أن حصلتُ عل شهادة التخصص "الماجستير" بدرجة "جيد جداً" ـ كما حدث في "الليسانس" من قبل ـ ، ووقف مُؤَشِّرُ الاختيار في دائرة الحياة أمام أشعار تلك القبيلة التي شَغَلَتْ نفسي وحسّي، واستولَتْ من وِجْدَانِي على كلِّ شيء.

ومن الأعاجيب أن ضَرَاوة هذا الموضوع وشدَّة شِمَاسه، وغرابَةَ شعر هُذَيْل إلى حَدِّ الغموض كانتا من الدوافع الأولى ـ بل من الحوافز الكُبْرىَ ـ إلى أن يكون عنوان بحثي المشار إليه هو:

«أشعار هذيل وأثرها في محيط الأدب العربي»

ذلك أنني أحسست في شعور داخلي بأنني إذا نَجَحتُ في إماطة اللثام عن أدب تلك القبيلة وتموُّجاته على سيف الشعر، وكشفتُ عن مكانة هذا الأدب وآثاره في المحيط الأدبي، فسأُغْني المكتبةَ الأدبيةَ بذَخيرةٍ هي في أشدِّ الحاجة إليها على مدى الزمن الطويل.

ولقد حاولت الأحداثُ جاهدة أن أَصْدِفَ عن هذا الموضوع، وأن أَعْزِفَ عن الكتابة فيه، وأن أتنخَّل موضوعاً عصرياً من الموضوعات السهلة التي لا تحتاج إلى كبير جُهْدٍ أو طُول عَنَتٍ وإرهاق.

ولكن أستاذي الدكتورَ عبدَ السلام سرْحَانَ أَصَرَّ على اختياري، وعاف أن أتخاذل أو أتضاءل أمام بُعْد الشُّقة وَوَعْثاء الطريق، وأبى أن أتزلزل أو أتخلخل إزاء ما يبدو من جَهام، أو ما قد يبدر من قَتام أو عَتام. ولهذا استخَرْتُ الله وسرْتُ على هُداه، وجعلتُ كتابتي عن هذا البحث غاية، والنجاحَ فيه آية، والحصول على جناه الجَنِيِّ وثمره الشَّهِيِّ قُصَارَاي وهجِّيرايَ.

ومن الحقِّ أنْ أُقَرِّرَ أنَّ الكتابة في هذا الموضوع كانت محاطةً بكثيرٍ من الأشواك، وأنَّ قلبي تعرَّض لكثير من الوَجِيب، وخَفَقَ بنبضات من الرُّعْب، بعدما تَمَّ اختياري، ووافق أستاذي على هذا الاختيار.

ومعروفُ أن دراسة ديوان الهذليين ليست أمراً هيناً، أو قريبَ المَنَال، ولكنها أمر مشعّب الجوانب، غامض المسائل، قليل الوسائل، صعب المِرَاس، والصِّبْغُ البَدَوِيُّ غير الصبغ الحضريِّ، وطريقةُ الحياة هنا غير طريقتها هناك. كذلك نجد الغريب منتشراً في الشعر الهذلي بصفة خاصّة، وهو طابَعٌ يكاد ينفرد به، بل تكاد كلّ كلماته تكون غريبة،وفَهْمُ الشعر دائماً متوقف على فهم الألفاظ والكلمات والعبارات.

ولقد كان المأمول أن تكون شروح ديوان الهذليين عامّة شاملة، ولكنها ـ مع الأسف الشديد ـ جزئيَّة لم تَستكْنه الألفاظ، ولم تشمل جميع الكلمات، ومن هنا كانت دراستها وفهمُ معناها أمراً متعَباً، بل مُوئِساً في كثير من الأحايين.

وأبو سعيد السُّكَّرِيُّ ـ شارح أشعار الهذليين ـ عالمٌ جِهْبِذٌ، ولغَوِيٌّ عظيمُ الشأن ومع ذلك اقتصر شرحه على بعض الألفاظ دون بعض، وقد يشرح الألفاظ الصعبة بكلمات أشد غموضاً، وتحتاج إلى من يشرحها للقراء.

ومع هذا كلّه أبى أستاذي إلا أن تتحطم هذه المخاوف على صخرة عَزْمِه، وأن تَدُوفَ تلك المخاطر في بحار حَزْمِه، وأن أسير في طريقي مهما كان أمامي من أشواك أو شبَاك. وقد ذكَّرني كثيراً بأن هذا الموضوع جدٌّ خطيرٍ، ويحتاج إلى بَذْلٍ كثيرٍ، واطلاع واسع غَزير يستوعب كلَّ جهد كبير، وأن هذا الموضوع لو خرج إلى عالم الوجود لأصبح من البحوث التي تَرُودُ، بل تَقُودُ، وأنَّ من المفاخر الكبرى أن يُستطاع كشفُ الغطاء عن هؤلاء العرب الأمناء الذين عَزَفُوا على قِيثَارِ الزمن أجْزَلَ الشعر وأقواه، وضربُوا على أعواد

الحياة عديداً من ألحان الأدب في ساحات الرَّجَز والقصيد، وأن المكتبة الأدبية العربية في أشدّ الحاجة إلى إخراج هذا السِّفْر، وفي أمسِّ الرغبة لوضع هذه الدراسات القيمة بين يدي الراغبين والطالبين، وأن هذا البحث سَيَقْرَعُ صَفَاةَ الشعر الجاهلي، ويُلينُ قَنَاةَ الشعر العربي القديم، في الوقت الذي يُهْرَعُ الباحثون فيه إلى الموضوعات اليسيرة المجهود، القليلة الجهود. كذلك ذكَّرني بأن الدراسات العليا في الأدب بكلية اللغة العربية لم تزد على ستَّة بحوث عن الشعر الجاهلي، مع أنه يحتاج إلى دراسات واسعة المدى، وأن أشعار هُذَيل هي القمة في الأساليب الأدبية التي احتذاها الشعراء فيما بعد.

والواقع أن هذا الموضوع كان حَرِيّاً بالبحث، جديراً بالدراسة، خليقاً بأن يكون هدفاً علمياً في ميدان البحث الواسع الفسيح. ذلك أن شعر هُذَيل يُعَدُّ أدَقَ مَثَلٍ لكلام العرب الأقحاح في البيئة العربية الخالصة، كما أنه صُورةٌ مُثْلَى لجُوْدَة الأساليب، وجمال التراكيب، وقوة التعبير، وجلال التصوير، ووضاحة البيان، وروعة البنيان، إلى جانب ما له من أثرٍ في الميادين الأدبيّة واللغويّة، يَعْبُرُ الدهور ويجتاز العصور.

ولقد كنتُ أشعر بلذَّةٍ كُبْرىَ وأنا أتهادى على بساط ذلك البحث،وكنت أشعر باندفاع شديد إلى الكتابة فيه، بعد جمع أصوله، والانتهاء فيه من دور التكوين.

ومما ساعدني على السير فيه بخُطاً واسعة أنني كنت متفرِّغاً كلَّ التفرغ للكتابة، ولم أشغل نفسي بعمل أو وظيفة تُعطِّلُني عن العمل كما يفعل كثيرون، ولهذا كنت جُلَّ وقتي مشغولاً بالبحث والدَّرس، عاكفاً على القراءة والاطلاع، وكانت إقامتي في القاهرة قريباً من الجامعة ومكتبة الأزهر، وفي جوار دار الكتب المصرية التي أنارت لي دائماً وأبداً معالم الطريق. كذلك أحسست حرارة المساعدة من مكتبتي الخاصَّة الحافلة بمئات الكتب القَيِّمة التي عبَّدتْ لي السُّبُل، ومهَّدَتْ أمامي طرائق الانتفاع بساعات الليل والنهار.

وقد وفقني الله ذو الجلال إلى اتِّباع مَنْهَجٍ علميٍّ خالص في البحث والدراسة، حيث عَزَفْتُ عن الأهواء، وصَدَفْتُ عن التعصب للآراء،وبَعُدْتُ عن الاعتساف، وعاديت المجادلة والشحناء، وآثرت أوَّل الأمر أن أَسْتَقْرِئَ المصادر الأولى للبحث، ولا اقرأ لأحد من الباحثين. ومن ثم قرأت دواوين شعر هُذَيل وشروحها، واستوضحت ما قرأت، وسَجَّلْتُ ما يراودني من خواطر، وربما أَعَدْتُ القراءة مَرّاتٍ ومَرّاتٍ، إذا لم تبدُ الآيات، أو تَظْهَرِ العلامات، ويتضحِ المعنى الذي يصح به ما يراد.

وبعد ذلك دَلَفْتُ إلى البحث في دراسات الدارسين لهذا الموضوع، وقد راعني أنني لم أجد من عُنِيَ ـ قبلي ـ بهذه الدراسة الشاملة، والبحث المتخصص الذي رفع لواء الاستكناه.

ومن الحقّ أن أقرر أن الدكتورَ أحمدَ كمالٍ زَكيٌّ كتب في هذا الموضوع، وأَلَّف فيه كتاباً ـ حصل به على الماجستير سنة ١٩٥١ ـ بعنوان: "شعر الهُذَليين في العصرين الجاهلي والإسلامي"، ومن الإنصاف أن أقرِّر أنه بحثٌ مفيد حقّاً وأنه يعدُّ مرجعاً هاماً لدراسة أشعار الهذليين وتاريخ هُذَيل وحياتها الاقتصادية والاجتماعية، ثم خصائص شعرهم ومجتمعهم الذي قَسمَّه إلى قسمين مختلفين هما: مجتمع الوادعين الشجعان، ومجتمع الصعاليك الذؤبان. وإن كان لم يتعرض لتحليل شعر أحد من الشاعرين اللذين ترجم لهما، وهما أبو ذُؤَيْبٍ وأبو خِرَاشٍ إلا في القليل. وهذا فضلاً عن إهماله الحديث عن تأثير الشعر الهذلي في المحيط الأدبي وغير ذلك مما فصلنا الحديث عنه في هذه الرسالة.

ويتكوَّن هذا البحث الضَّافي من عدَّة أبواب وفصول، تضمنتْ حديثاً سريعاً عن الجاهلية، والقبائل العربية وأحوالها الأدبية. وقد أَفَضْتُ القولَ عن القضية التي شَغَلَت الأذهانَ، واستغلَّها المستشرقون وأذنابُهم في الطعن على الشعر الجاهلي. تلك هي قضية انتحال الشعر ووضع القصائد ونِسْبَتِها إلى أُناسٍ حقيقيين أو مُتخيَّلينَ. وقد وفقني الله كلَّ التوفيق في عرض هذه القضية، وحسم الحديث عن الوضع والانتحال، فقدَّمت الحُججَ والأدلة القاطعة على وَثَاقَة هذا الشعر، وأَبْرَهْتُ على كذب المستشرقين وذُنَابَاهُمْ، وكشفتُ عن هدفهم الخبيث الخبيء في نفي النصوص الجاهلية، والخروج بأن القرآن الذي ينكرون حقيقته هو المثالُ الصادق الوحيد للأدب الجاهلي، إذ إنه ـ في نظرهم ـ من وَضْعِ محمد بن عبد الله، ومن صُنْع يديه، وإحدى ثمار عبقريته في فنِّ البيان ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاّ كَذِباً** ﴾ [الكهف :٥].

كذلك تحدَّثتُ في بَسْطٍ وامتدادٍ عن وضع هُذيل فوق البساط العربي الواسع الرُّقعة، الفسيح الأرجاء، وتناولتُ في ذلك الحديث موطنَ هُذيل وحدوده، وأعلامَه وبُنُودَه، ثم فَصَّلْتُ الحقائق عن نَسَب هذه القبيلة، ودَلَّلْتُ على أنها من عرب الشمال العدنانيين، وألْمَمْتُ في ثنايا الحديث بأصولهم وفروعهم وبطونهم وأفخاذهم، ثم دَلَفْت إلى الكشف عن مكانة هذه القبيلة اجتماعياً وحربيّاً وأدبيّاً، ثمَّ عن مقامها بين القبائل، معرِّجاً عن تاريخها في الجاهلية والإسلام وخاصّة عن موقفها مع رسول الله ﷺ.

وبعد هذا قدَّمْتُ سلسلةً بيانية عن الصُّوَر المُمَيَّزة والانطباعات الخاصّة لحياة هُذيل، التي كانت قبيلةً باديةً محافظَةً بعيدةً عن الاختلاط بغيرها، وما يُعَقِّبُ من آصارٍ وأوضارٍ في لغتها وأدبها، ثم تصوَّبْتُ وتَصَعَّدْتُ في الحديث عن مصادر ثرواتها،وأنواع هذه الثروات، وألوان حياتهم وصُوَرها المميزة، وخرجت بأن حياتهم كانت تعتمد على الثروة الحيوانية التي تنشأ وتنمو في المراعي ومنابت الكلأ، ثم على مغانم السَّلْب والنَّهْب، وثمار الغارات، ومكاسب الغزوات، ثم ما يصيدون من حيوانات، كذلك أشرتُ إلى شهرتهم بتربية النَّحْل واشتيارِ العسل، ووصولهم في ذلك إلى مدىً بعيد.

ولقد ألمعت إلى ظاهرة برزت فيهم بُرُوزاً مُلْفتاً للأنظار، وهي كثرةُ الصعاليك والذؤبان كثرةً مُفرِطة فاقت كلَّ تقدير حتى لقد كان هؤلاء وأولئك يشكِّلُون خطراً دائماً على الأمن العام في محيط الجزيرة العربية، بل على بطون هُذَيل نفسها بَلْهَ جيرانها، وكان منشأُ ذلك أساساً جرأتَهم البالغة، وشجاعتهم النادرة، مع شاعريتهم الفذَّة، وطاقتهم الباذَّة في كلّ ميدان، وفي أشعارهم أحاديثُ مفصلةٌ عن أخبارهم الطريفة، وتصويراتهم الجميلة، وكثيرٍ من أخلاقهم الحميدة، وصفاتهم الكريمة، وقد انتهيتُ إلى أن أعلى سماتهم،وأجلى ميزاتهم، وأروع صفاتهم هو ما انفردوا به ـ بصفة عامَّة ـ من بلاغة وفصاحة وسلامة لغةٍ رفعت مكانتهم الأدبية إلى أعنان السماء، وخَلَقَتْ منهم كثرةً كاثرة من فحول الشعراء، ومنحتهم شهرةً ذائعة في اللَّسَنِ والفصاحة واستقامة الألسنة على سِيفِ البيان.

ومن هنا اتجهنا إلى الحديث المبسوط عن شعر هُذَيل وشعرائها، حيث تكلَّمنا عن دواوين هذا الشعر ورُواته، وأشرنا إلى المصادر الوثيقة لهذا الشعر، وبينا أنه الشعر الوحيد الذي وصل إلينا من مجموعات شعر القبائل، لأن الغارات البربرية التي هَجَمَت الشَّرْقَ الإسلامي أضاعت وأتلفت الآلاف المُؤَلَّفة من ذخائر الشعر وكنوز الأدب على مدَى القرون المتوالية، والحوادث المُخَرِّبَة التي مُنِيَ بها هذا الشرق العتيد أيامَ الصليبيين والتتار القدماء والمحدثين.

وقد وضعتُ بين يدي القارئ الكريم بياناً تأليفياً بوَثَاقَة رُوَاة شعر هُذَيل، وألْمَعيَّتهم بين الرواة، وجُسْتُ مع التاريخ ميادين أخبارِهم، والترجمة لهم في إيجازٍ وتركيزٍ. وبعد ذلك جُبْتُ آفاق هذا النتاجِ الأدبي الذي ليس له بين المصادر الشعرية مضاهئ ولا نظير في مجموعات الشعر القديم.

وبين عَجَبي منه وإعْجَابي به وضعتُه على نَضَد الدراسة الفنية،وأدخلتُه معمل البحث والتحليل، من حيثُ أَغراضُه وفنونه وطبيعته وهَيُولاهُ وإلهامُه ووَحَاهُ، ووازنتُ بين هذي الفنون وتلك الأغراض وبين الشعراء المشتركين في هذه الأنماط وتلك الأنواط التي ذكرت منها مئات بل آلاف الأبيات ولم أقف عند دراسة النماذج، والطُّرُز المشهورة عند الشعراء المبرِّزين، بل كثيراً ما كنت أَعْمدُ إلى النصوص المُوحيَة والأبيات المُلهمة ـ ولو كانت لشعراء مغمورين ـ فأُبْرزَها وأُشيْدَ بها وأُطْرِيَها ـ وأضعُها في الإطار الأدبي الذي يليق بها بين الإطارات الأدبية الخالصة.

وقد اقتضتني هذه الدراسة العميقة الجُذُور الوقوفَ على شعر هُذيل طويلاً والتملُّؤَ مما فيه من سمات، وماله من مَيْزات،وما يَضُمُّ من قصائد ومقطَّعات وأراجيز وأبيات تناولتُها بالعرض والتحليل في بُوْتَقَةِ البحث الفني، وفي مِعْرَضِ الدراسة الناقدة التي أسفرت عن خصائصه ومزاياه.

وواضحٌ أنني ضربتُ صَفْحاً عما صادفني من صعوبات ومشقّات وأشواك طالما أَدْمَتْ جِلْدي، وأَوْهَتْ جَلَدي ، في كثير من الحالات، خاصَّة أمام ذلك البحر الهادر بالكلمات اللغوية،والعبارات الجاهلية التي يَتَفَصَّد الجَهْلُ منها عَرَقاً،وتصْطَكُّ أمامها أسنانُ الغُرَبَاءِ عن ذلك الأسلوب اللغوي الغريب الذي تناولتُه بالشرح والتحليل في كثير من الأحايين.

وأمامَ انْسيَاحِ هذه الدراسة وانْديَاحِهَا، وتموُّجها وتشعُّبها، حاولتُ أن أحصي شعراء هُذَيل عدداً، وأَمْريَ أَخْلافَهُمْ مدداً، مع الترجمة المركزة لأشهر الجاهليين منهم والإسلاميين.

وبعد هذا كلِّه تكلَّمتُ عن تأثير الشعر الهُذَليِّ في المحيط الأدبيِّ،ومدى هذا التأثير الخطير في مختلف الأزمنة والعصور،ومن المؤَكَّد أن ما كشفتُ عنه في هذا الجانب الفني الدقيق كان ثمرةً مَرْجُوَّةً، وغايةً مُؤَمَّلَةً من هذه الدراسة التي كانت قُصَارايَ وهِجِّيرايَ طَوَالَ أربعِ سنواتٍ متواليات. وقد تحدثتُ عن مدى هذا التأثير وجَداهُ في محيط الأدب والنقد واللغة والنحو والتفسير وغيرها، وعن إفادة العلماء والأدباء من هذا المَعين الثَّرِّ، والنَّبْعِ الدافق بالكَوْثَرِ العَذْب، والشراب السائغ اللَّذِّ للشاربين.

ولم آلُ جُهداً في إبراز فضل الشعر الهذلي في تقعيد القواعد، ووضع القوانين العلمية لفنون العربية، وما كان له في مَجال الاسترشاد، أوْ مَصَالِ الاستشهاد،، داعماً

حديثي بذكر الأمثال والشواهد التي اعتمد عليها العلماء والأدباء من أشعار وأرجاز الهذليين، حيث كانت الدعائمَ الأُولَى والأُسُسَ الثابتة، لوضع قواعد العلوم والفنون التي أفاءَت على المعارف العربية الخيْرَ الوافر، والنفعَ الغزير.

ولقد يبدو هذا الكشفُ الدقيق نتيجةً سارَةً لهذا النَّصَب والوَصَب الذي اشتَفَفْتُ غُصَصَهُ،وترشَّفْتُ مَرارَتَه في صَبْرٍ ورِضاً طيلَةَ تلك السنوات الحُسُوم، راجياً تمهيد الطرق، رانياً إلى تعبيد السُّبُل، مؤملاً الوصولَ إلى الغاية التي تأَيّيْتُها، والنهاية التي قصدتها بعد هذا الجهد الجاهد، والعمل الشاقّ العنيف.

ولقد كان من أهمّ الصِّعاب التي واجَهَتْني في صَرَامة وعَرَامة، هذا الغموضُ الشديدُ الذي يكتنف الألفاظ ويحيط بالكلمات، ويسود كثيراً من الأساليب والتراكيب،فكان عَلَيَّ أن أعاون نفسي بالتَّمَرُّسِ والدُّرْبَة والمَرانَة، ومحاولة الإحاطة خُبْراً بالمعاني التي تفهم من تلك المباني في مفرداتها وجملها التي فاقت في جزالتها وغرابتها كلَّ مألوفٍ مَعروفٍ.

ومن الطريف أنني في خِضَمِّ عملية الشرح والتحليل ـ التي لم يتعرض لها أحد قبلي فيما أعلم ـ كنتُ أُحِسُّ الجمالَ والروعة، وأشعر بالحُسْنِ والفَتْنِ، وألمسُ الفنَّ الأصيلَ في القدرة على التعبير والرسم والتصوير عن طريق الكلام. على أن شرح السُّكَّري لأشعار الهُذَليين مع فخامته وضخامته وعمقه في نظر دارسي التراث، لا يكاد يَبُلُّ أُواماً، أو يَشْفِي غَليلاً لباحث حديث، لُحْمَةُ بحثه وسُدَاهُ: الدراسة الفنية المتعددة الجوانب، والقائمة على أوضاع منهجيَّة لم يعرفها القدماء.

ومن هنا كلفني تحليلُ تلك الأشعار وشرُحها كثيراً من العَنت والرَّهق الذي كاد يُؤَدي إلى الزَّهَقِ لولا صُبَابَةٌ من أملٍ في إتمام هذا العمل الذي لم يتجه إليه باحث من قبل على هذا المستوى الدراسي المتعدد الدرجات.

والحقّ أن اكتمال هذا العقْد كان بفضلٍ من الله ونعمه، بعد أن أشار به أستاذي الدكتورُ عبدُ السلام سرْحَانُ الذي أَصَرَّ على شرح هذه الأشعار فنيّاً وتحليلها تحليلاً أدبيّاً،يشبع النَّهَمَ والقَرَمَ الذي يبدو من المطلعين على تلك الدواوين.

كذلك كان من المَوَاطِن الصعبة في هذا البحث إبرازُ جوانب التأثير العلمي والأدبي للشعر الهذلي فيما سواه من أشعارٍ امتدَّتْ قروناً متطاولات، فقد اقتضاني

ذلك اطلاعات واسعةً، وقراءات مُسْتَكْنِهةً لأطوار الأدب العربي حتى العصر الحديث، حيث تصفحت كُثْراً كاثراً من ذخائر الأدب وكنوز المعرفة، وسلطت أشعة البَصَرِ والبَصيرَةِ على ما قد يكون هناك بين السطور، رابطاً بين الشعر العربي والشعر الهُذَلي في القديم والحديث.

ومن الحقائق الثابتة في هذا الشأن أن الشعر الهذلي الذي عَنَيْناهُ في ثنايا بحثنا لم يَقفْ عند حدود الجاهلية وصدر الإسلام، بل تناولتْ دراستُنا ذلك الشعر في ثلاثة القرون الأولى للهجرة النبوية، على المدى الفسيح الذي لا يكاد يَتْرُكُ شاردةً ولا واردةً فيما وصل إلينا من معلومات.

ولقد رجعتُ في إعداد هذه الرسالة إلى عديد من المصادر والمراجع،ولم آلُ جُهداً في النَّهَلِ من جميع الموارد والمناهل التي عَرَضَتْ لهذا الموضوع من بعيد أو من قريب،كذلك حرَصت على أن أَعْزُو كُلَّ نَصٍّ أو فكرة،أو رأي لمصدره أو صاحبه الذي ابتدع الفكرة أو رأى الرأي، تقديساً للأمانة العلمية، وتسجيلاً للحقائق والدقائق التي كثيراً ما تغمط في مثل هذه المواطن. ومن الحق أن أُقرِّر أنني مَرَرْتُ بدراسات خفيفة عابرة عن الشعر الهذلي، ولكنها في موضوع بحثي لا تَزِنُ قِطْمِيراً ولا تساوي شَرْوَى نَقِيرٍ.

غير أنني لا أنكر ـ كما أشرت سابقاً ـ أنني أفدت كثيراً في هذا البحث من كتاب: "شعر الهُذَليين" للأستاذ الدكتور أحمد كمال زكي، وكيل كلية البنات بجامعة عين شمس،وكذلك مما كتبه أستاذنا الدكتورُ عبدُ السلام سرْحَانُ في دراسته الممتعة لعينية أبي ذُؤَيب الهذليِّ، وحَديثه الدقيق عن قبيلة هُذَيْل، ومكانتها في الشعر واللغة والأدب الذي تضمَّنَهُ كتابُهَ القَيِّمُ، "قطوفٌ من ثمار الأدب" كذلك أعترف بما أفدت من دراسات الأستاذ عبد الستار فراج حول كتاب "شرح أشعار الهذليين" الذي حقَّقه تحقيقاً مُشَرِّفاً، وأحاطه بسياج مشرق من الدراسات المختلفة في شتى نواحي المعرفة.

ولقد خالفتُ بعض من سبقوني إلى دراسة الشعر الهذلي من الباحثين في كثير من المسائل؛ لأنني جعلت مصدري الأول في هذه الدراسات هو الدواوينَ الشعريةَ لشعراء هذيل، ولم أكن إلا باحثاً عن الحقيقة في مصادرها الأساسية يقرر ما يراه، ويسجل ما يشاهده.

ولئن كُنْتُ قد وُفِّقْتُ في بحثي هذا وخرْجت بنتائج مُرْضِيَةٍ للعلماء والأدباء والنقاد إني لأشكر لله آلاءَه، وأَقْدُرُ له نعماءَه، ثم أقرِّر وأكرِّر أن الفضل التالي لفضل الله تبارك وتعالى كان لأستاذي الجليل الدكتورَ عبدُ السلام سِرْحانُ --المشرِف على هذه الرسالة ـ حيث أحاطني بعنايته، وشملني برعايته، ومهَّد لي الأعتاب، وفتح لي الأبواب، وأزال ما بيننا من حجاب، فاستَدْرَرْتُ من حلاَب علْمه ، ومَرَيْتُ من أخلاف أدبه، واشْتَفَفْتُ من رحيق توجيهاته، واستضأْتُ بأنوار آرائه، وتابعتُ الخطا الوئيدةَ التي حَمَلَنِي عليها، وأَلْجَأَنِي إليها، في السير قُدُماً نحو الغاية،والمواكبة في طريق النهاية التي عملنا لها،وبذلنا من أجلها كل مُرْتَخَصٍ وغالٍ.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أشكر له بِيضَ أياديه التي قَدَّمها إِلَيَّ في سخاء ومنحنيها في اصطفاء واجتباء، وأسأل المولى سبحانه أن يُبْقِيَهُ ذُخْراً للأدب ولغة العرب، وفخراً للأدباء والمتأدبين.

كذلك أوجه جميل شكري وجزيل ثنائي إلى الأستاذين الكبيرين:

الدكتور / سليمان حسن ربيع عميد كلية اللغة العربية (سابقاً) جامعة الأزهر.

والدكتور/ حامد حفني داود رئيس قسم اللغة العربية بكلية الألسن جامعة عين شمس.

عضوي لجنة الحكم على الرسالة على ما بذلاه من جهد، وما تحملا من عناء في قراءة هذا السِّفْر الكبير، راجياً المولى جلَّ وعلا أن يوفِّقَني إلى اقتطاف أشهى الثمار العلمية والأدبية التي يقدمانها على نَضَد المناقشة، وإلى الاستفادة الحقَّة مما يبذلان من توجيهاتٍ، أو يريان من نقداتٍ في ميدان الأدب الوارف الظلال.

وما أنا أمام أساتذتي الجهابذة إلا طائر صغير، ذو جناح كسير، يرنو إلى أن يَرِيشُوهُ بفيضهم وفضلهم، حتى يستطيعَ أن يَطِيرَ.

وعلى الله أعتمد، وإليه أستند، وبه أَعْتَدُّ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الدكتور

«إسماعيل داود محمد النتشة»

القاهرة في يوم الجمعة ٢٧ ـ صفر ـ ١٣٩٦هـ/ ٢٧ ـ شباط (فبراير) ـ ١٩٧٦م